تصدير

لمن كتب هذا الكتاب ؟

للعاملين مع العميان – من المحترفين وغير المحترفين ، من المأجورين وغير المأجورين . لهؤلاء العميان الذين كانوا يبحثون عن إجابات وافية عن مشكلات عماهم .

لأسر العميان

للعاملين فى المجال العام للتأهيل .

للإخصائيين الاجتماعيين .

للمعلمين فى المدارس العامة والخاصة ، الذين يستقبلون بصفة متزايدة أطفالا من العميان فى فصولهم .

للأطباء – وبخاصة المشتغلين بالطب العام – ولأطباء العيون ، وللأطباء العقليين لهيئة العاملين بالمستشفيات ، لأصحاب بيوتات التمريض ، للجماعات المتزايدة من العاملين مع مرضى الشيخوخة .

أغراض الكتاب

هذا كتاب عن العمى : لا عن جوانبه الطبية ، ولا عن الوقاية منه ، وإنما عما يفعله بالناس عندما يقع .

والكتاب بصفة خاصة عن نوع معين من العمى – العمى الذى ينزل بالراشد الذى كان مبصراً .

هنا نحاول تحليل العمى ، ماذا يفعل فى الشخص العادى حين ينزل به فى سنوات الرشد ؟ وماذا يمكن وينبغى عمله مع العمى ؟

ثمة كتّاب آخرون ميزوا بين « الأعمى » ، وبين « الأعمى متأخر العمى » ، بين هؤلاء الذين لم يبصروا قط وبين الذين أبصروا قبل أن يفقدوا البصر . واستخدموا للدلالة على ذلك مصطلحات من قبيل

« الأعمى مولدىّ العمى » « والأعمى اكتسابىّ العمى » « أو الأكمه » (للمولود أعمى) و « الأعمى حديث العمى » . ولكن كائنة ما كانت المصطلحات المستخدمة فإنهم لا يميزون فى وضوح الاختلاف النوعى الرئيسى ما بين « فقدان البصر بعد الإبصار » وبين « انعدام الإبصار منذ البداية » .

وغالباً ما يتحدثون وكأن الأمر ليس سوى اختلاف طفيف ، سواء اتصل الحديث بأعمى منذ الولادة ، أو أعمى فقد بصره فى سن باكرة ، فى الشباب ، أو فى الرشد . ومن هنا كان من السهل على القارئ غير المتخصص أن يتوهم أن الاختلاف الوحيد ما بين العميان إنما ينحصر فى السن التى حدث فيها ، أو الفترة التى انقضت منذ وقوع العمى . « ففى نهاية المطاف كلهم عميان » .

أما هذا الكتاب فيعتبر أن تبين الاختلاف الكيفى ما بين العمى المولدىّ والعمى الاكتسابى إنما هو أمر حيوى ينبغى أن تسبق معرفته المجهودات المستبصرة لتأهيل العميان . فهذا الاختلاف أكثر أهمية بكثير من أية اختلافا ت أخرى بين العميان من طول الفترة التى انقضت منذ وقوع العمى أو السن التى وقع فيها العمى . إنه اختلاف فى نفس طبيعة العمى على نحو ما ينال الشخص .

ونحن المبصرين الذين نحتفظ بأبصارنا لا نستطيع أن نبلغ إلى شىء من فهم الأعمى المولدىّ إلا عن طريق فهمنا للشخص الذى كان مبصراً وفقد بصره ؛ ذلك أننا نستطيع عندئذ على الأقل أن نتخيل ما يمكن أن يكون عليه ذلك . فإغماض العينين لايمكن أن يعلمنا ما يمكن أن تكون عليه حال الشخص الذى لم ير الألوان قط فى حياته .

ولكن إغماض العينين يمكن أن يعطينا فكرة عما يمكن أن تكون عليه الحال عند عدم رؤية الألوان . ولأن نتصور ما يمكن أن تكون عليه حياتنا دون صور عقلية بصرية فذلك « أمر مستحيل » . فالصور العقلية البصرية تدخل متشابكة فى ضميم النسيج الكلى لأسلوبنا فى التفكير ، ولكن ليس من المستحيل أن نتصور ما يمكن أن تكون عليه حياتنا حين لا نملك غير الذكريات البصرية .

وعليه فنحن فى هذا الكتاب ، لانتناول قسوة « النقص » ، بقدرما نتناول إيلام « الفقدان » ، فنحن نصبّ الاهتمام بصفة أساسية على المشكلات التى ينطوى عليها تأهيل الذين صاروا إلى العمى . ولكننا حين نبلغ إلى استبصار أعظم بهذه المشكلات ، فإننا أيضاً نكون بذلك أقرب ما يمكن إلى تبين مشكلات الذين لم يروا قط — تلك هى الوسيلة الممكنة .

وتدلنا آخر الإحصائيات على أنه يوجد حوالى ٣٥٠٫٠٠٠ من العميان[1] فى الولايات المتحدة وأن الغالبية العظمى منهم قد فقدوا البصر أثناء الرشد . كما تتوقع الإحصائيات زيادة فى حالات العمى الاكتسابى . وحتى لولم تكن حالات العمى فى ازدياد ، فسيظل من المهم ، بالنسبة للعميان الحاليين ولنا كزملاء لهم ورفاق — أن نفهم دلالة العمى ونتبين إمكانيات التأهيل بالنسبة للذين فقدوا بصرهم . وإذا كان لهذا أن يتحقق ، فلا بد من استبعاد المخاوف . والانفعالات التى تحيط بالموضوع ، ولا بد أن نحلل العمى بطريقة موضوعية تحليلية قبل أن نحاول إشعار العميان بذاتية الدفء الذى ينطوى عليه حبنا .

ولأن نحاول تناول العمى فى رعدة الحمية الانفعالية ، فذلك ما يبعث على الغواية . ولكن كثيراً جدا ما يكون هذا التوقد دلالة على أننا نعطى شيئاً يحتجب وراء قناع الحب — يحتجب حتى بالنسبة لمن يقدمه — على حين يخفى بين طياته بذور الكراهية والرفض . وكثيراً جداً ما يفرض على الأعمى عطف عصابى أو ارتعاشة الرفض أو تملك يستند إلى تطابق زائد أو صورة من الإشفاق تترابط مع تعصب مناهض « للتشريح العلمى للحيوانات الحية » ، وليست هناك وسيلة سهلة نتبين بها الكيفية التى تتيح لنا إعطاء حب حقيقى وتقديم المساعدة والعطف الحق .

---

(١) المسح الذى قامت به وزارة الصحة الأمريكية (يولية ١٩٥٧ — يونيه ١٩٥٨) كان ينطوى على سؤال مؤداه هل كان الشخص يستطيع قراءة المطبوعات العادية بالنظارات ؟ ونتائج المسح تقدر عدد العميان فى الولايات المتحدة ٩٦٠٫٠٠٠ .

غير أن الدراسة التى تحاول أن تتبين الدلالة الحقيقية للعمى ودلالة بعض مشاعرنا إزاءه، إنما تعد بداية فى هذا الطريق، فإذا لم تتأد من نفسها أو بالضرورة إلى الحب، فإنها تستطيع على الأقل إزالة بعض الصعاب التى تعترض طريق حبنا .

وليس من قصد هذا الكتاب أن يتعرض لإعاقات أخرى غير العمى ، اللهم إلا حين تنتسب إلى عميان ، والإعاقات الجسيمة كلها تشترك فى أمور كثيرة . ومن ثم فإن استجلاء دلالة العمى وما يمكن فعله إزاء العمى ، يمكن أن يعين القارئ أيضاً على أن يتفهم على نحو أفضل طبيعة الإعاقة من حيث هى كذلك . وإذا كان منهج « التحليل — التركيب » الذى استخدمناه فى هذا الكتاب قد أثبت صلاحيته فى تناول العمى ، فمن الممكن أيضاً أن يصلح لتناول إعاقات جسيمة أخرى .

وعلى أية حال ، فإن هذا الكتاب يهدف قبل كل شىء إلى أن يكون بمثابة مسح يقوم مقام المدخل لآلاف الناس الذين يدخلون مجال العمل مع العمى فى كل سنة ، سيان كانوا من العاملين بأجر أو من المتطوعين . وكلى أمل أن يعفيهم هذا الكتاب خلال أيامهم الأولى عند ما يكونون ما يزالون غارقين فى الالتباس مكبلين بانفعالاتهم هم فى مواجهة صدمة العمى ، متحيرين من تعقدات هذا المجال الجديد ، وبفعل ما يسمعونه من مأثورات متناقضة يرددها الناس من حولهم عن العميان فهم « طبيعيون كالآخرين » ، وهم فى حاجة ماسة إلى المساعدة وهم يملكون قدرات خارقة . . . الخ .

خطة الكتاب

نظرة إلى فهرس هذا الكتاب ترينا أن المنهج المستخدم إنما هو منهج التحليل يتبعه التركيب . والجزء الأول تحليل للفقدانات التى تأتلف فى أغلقة العمى المتعددة الجوانب ، والجزء الثانى يتناول مشكلات إحياء أو « إبدال » ما تم فقده ، فى بناء يصاعد إلى التأهيل الكلى للأعمى . أما بقية الكتاب فيعرض لعديد من الأسئلة النوعية تتعلق بالعميان أنفسهم وبالذين يحاولون مساعدتهم .

وعلى القارئ فى دراسته لمختلف الضربات التى ينطوى عليها العمى أن يعى تماماً الحقيقة التى مؤداها أنه ما من تحليل يستطيع أن يعزل ويفصل بشكل تام الآثار العديدة للعمى . هى ضربات تنزل بحياة بشرية ، بحياة كائن عضوى وكل مكتمل ، بشخص ، ومن ثم فإنها تتشابك بالضرورة فى نسيج واحد . والتحليل الذى نقدمه فى هذا الكتاب إنما هو ثمرة ما يزيد على خبرة العشرين من السنوات فى الحقل ، واستطلاعات ومناقشات من العميان أنفسهم وثقات من العاملين فى مجال العمى . ومن الممكن أن تكون هناك أشكال أخرى لتحليل وتصنيف الفقدانات العديدة للعمى . إلا أن هذا الأسلوب الذى اتبعناه فى التحليل والتصنيف قد كشف — على أية حال — عن فعاليته ، وذلك خلال فترة طويلة .

أما الحقيقة الثانية التى يتحتم على القارئ أن يعيها فهى أن هذه الفقدانات التى ليست فى ذاتها متكافئة القسوة ، إنما يعيشها الأشخاص فى أشكال مختلفة وبدرجات من الشدة متفاوتة تتباين من شخص إلى شخص .

وفى هذا الكتاب نتناول بصفة « أساسية » « الرجل الأعمى » ، ولكن بالنظر إلى اختلاف سيكولوجية الأنوثة عن سيكولوجية الرجولة ، فإن الفقدانات المختلفة تعيشها المرأة على نحو مباين ، ومرة أخرى ننبه إلى أن الفقدان الذى يبدو للواحد أكثر الفقدانات تدميراً . يمكن أن يبدو للآخر مجرد مضايقة قليلة الشأن تسبب فيها العمى . إنه الشخص من حيث هو وحدة كلية فريدة « بكليته وفرديته » . يعانى الضربة العديدة الجنبات ، وهو يتلقاها تبعا لبنية شخصيته من حيث هى بنية فريدة ، وتبعا لأسلوبه الخاص فى الحياة ، وتبعا لاهتماماته الخاصة وظروفه الخاصة : وأى تحليل لفقدانات العمى ينبغى تطبيقه على الأعمى كشخصية فريدة — وكذلك الحال فيما يتصل بما يترتب على ذلك من برنامج تأهيلى :